سليمان العيسى

فى ديوانه « مع الفجر »

للأستاذ أحمد الفخرى

خلى أسمر الحياة شيدا وأذيب الوجود فى إيمانى
ربما مزقت أناشيدى الحـ ـراء بعض القيود عن أوطانى
أنا لو أستطيع أرسلت أنغا مى شواظا من مارج ودخان

أهكذا تنصرم الأيام كاللمحة الخاطفة ؟ أحقا تسع سنين قد مضت على لقائنا الأول ؟ تالله لكأن ذلك كان بالأمس.. ولئن استطاع أن يفرق الزمان شملنا فهو أعجز من أن يهزم الذكريات .. ذكريات تلك اللحظات الحالمات .. وهل هن من حلم الحياة إلا يقظة العمر !

يا لحظة النشوان لا تعبرى ما أنت إلا عمرى السرمدى

* * *

فى صالة الاستراحة فى دار المعلمين العالية ببغداد كانت عيون الطلاب منجذبة إلى فتى جالس وحده ، كانوا يحدقون النظر به ثم يتهامسون فيما بينهم حتى رابنى أمره ، فسألتهم ماشأنه ؟ فقالوا — وملؤهم الإعجاب — هذا فتى نابغة من لاجئ (الإسكندرونة) رحمها الله ، وهو شاعر جبار ، فزاد اهتمامى به ، وتأملته فإذا شاب هزيل الجسم ، كليل البصر ، يضع على عينيه منظارا لايلائم شبابه الغض . ونظرت إلى عينيه فبدتا أول وهلة زجاجتين زرقاوين خاليتين لا تعرفان الاستقرار ، فلما أنعمت النظر لمحت من ورائهما بريقا عميقا لم تستطع النظارة ولا قصر النظر إطفاءه

ذلكم هو سليمان العيسى شاعر الشباب الرقيق وشاعر الفتوة العربية بحق ، ذلكم سليمان الذى صهرته عواطفه وأذابته مآسى هذا الوطن المتلاحقة ، سليمان الذى يقول :

ألقيت فى الإعصار روحى وسقيت من قلبى جروحى
أنا لست أغنيـــة الهوى بل صرخـــة الأمل الذبيح

والذى يقول :

أنا لو أننى خلقت جماداً كنت أولى قذائف البركان

وبعد فمعذرة على أيها القارئ العزيز أن أنقد شعر سليمان نقداً علميا منظماً لأنى لا أستطيع أن أجرد حديثى من عاطفتى وأى عاطفة هى ! اتحدت مزجتنا الآلام ووحدت سيرنا الآمال وعشنا بضع سنين نحيا حياة واحدة نحمل فى صميمها من حاضرنا شكوى مشتركة ونطل بنا على المستقبل من منظار واحد

ومجمل ما يجب ذكره أن أقول إنابتنا عمت الأقوال ونود لو بالأعمال اعتضنا عنها أو كما يقول سليمان فى مقدمة ديوانه (مازلت أوثر أن أحيا على أن أسجل) فكانت حياته شعرا وكان شعره هذه الحياة الفنية الفتية الغنية بحب الوطنين (القلب) وطننا الأصغر (والأمة العربية) وطننا الأكبر ، وهو لا يرى الأول إلا صورة مصغرة من الثانى ، وهى ممهدة له ومغذية .. ولهذا فأنت لا تفتأ تجد فى ديوانه انتقالا رائعا من الغزل إلى الحماسة ، تفسره لك هذه العقيدة النبيلة ، اسمعه يقول فى موشحه (لمن أذوب ألحانى) :

لو كنت حرا لأسكرت الوجود على
أنغام حبى ... وأفنيت الصبا قبلا ...
أستسمح الحسن ، بل أستغفر الغزلا
ماذا ؟ أأرقص فوق النعش قد حملا
جثمان شعبى فيه ، ضاحكا ، جذلا ؟
أأستحيل كغيرى نحوه خشبا ؟
وأسخط الله ، والتاريخ ، والعربا !

* * *

لى من هواك .. جناح سوف أقتحم
برج النضال به ، والهول يحتدم ...
هذى (القيود) التى حولى ستنحطم
لا قدس للحب فى أرضى ولا حرم
ما نقلت فوقها (مستعمراً) قدم ..
قولى لمن تنكر (للذؤبان) ما ارتكبا ..
هل تأمن النمر المطعون أن يثبا ؟

* * *

وبعد أن يقول من موشحه (جنة الفن) فى أسمهان :

يؤثر الفن لو نسينا (المكانا)
واختصرنا ... بقبلتين (الزمانا)
ما وهبنا الشباب : والعنفوانا
لنداوى جراحنا ، وأســـانا
لن تراني يا قلب أشكو سنانا
خضبته كف الهوى بوريدى
لن يراني اللهيب غير وقود ...

اسمعه بعد ذلك يقول :

حرقة أنت فى فؤاد الفنـاء
أن تناى عن الكؤوس الظماء
قبل أن تشهدى مع الصحراء
يوم عرس الحرية الزهراء
قبل أن تصدحى بلحن (الجلاء)
وتهزى به رفات الحـدود
يوم تمشى على حطام القيود

***

وليس أصدق فى تمثيل فكرته هذه وشدة تعلقه بها واعتزازه بن وصيته فى نشيده لشبله (معن) ، وهل أشد إخلاصا من صيحة الكبد بضعة منها ؟

وعدا ... إذا عبق الجما ل ورفت النيد الحسان !
وتموجت شعـــل الشبا ب وصاح فيها العنفوان
ولويت أعطـــاف الحنيـ ن فطار من يدك الحنان
فاشرب على نخب (الحيا ة) فإن ظامئها جبان
وأحب ملء الروح منـ ـطلقا .. وللحذر الهوان

***

وإذا تفجرت الحقود .. وزمجر البلد المهـــان
ورأيت أرضك ها هنـا (ناب) وثمة (أفعوان)
وتكلم الأحرار فالآفا ق نار أو دخان
فاخضب طريقك باللهيـ ب وأنت فى يده سنان

***

ذلكم سليمان : قلب ناضر ملؤه الحب والجمال ، وشباب ثائر تتفاذفه الآلام والآمال ، فهو بين يأس (أو شبه يأس) لولا جلال التاريخ ووقدة العزيمة لذهب بالأمل ، وأمل لولا عزة الماضى وعمق جذوره لخبت جذوته واستحال رمادا ، وروح قرارته خضم مائج لا يستقر ، وكيف يستقر وفتوة الشباب تذكيه ونكبات الضاد تمر به إعصاراً أهوج !

وهو من بعد إن سار سددت خطاه حماسة الشباب وحرارة الحياة، وهو إن تكلم نطق الحب ، حب تلكم الحياة الفتية المتدفقة المتألقة فى كلامه، فما الحياة وما الحب إلا للوطنين القلب والضاد، وحسبه فى هذين الفرضين — وقد أسراه — أن يتنقل بين أفنان لا حدود لرياضها ، وأن يضرب فى لج لا ساحل لعبابه : الحب والبطولة — ياأخى القارئ — وقد أهدى إليهما ديوانه لأنه استوحاه منهما — الحب والبطولة حسب الشباب شبابا فهما الحياة بأجل وأوسع وأقوى معانيها ؛ وهل الفن إلا تعبير حساس عن الحياة ؟

(لمحة هزت نشيدى فانطلق — رعشة حيناً وحيناً زلزله)

والحياة الخالدة هى أمنية كل حى فان وفقدانها سر شقاء الحيام.. ولكن سليمان خلد نفسه فى خالدين . . وهل أروع من أن يخلد الإنسان ذاته فى وطنه الصغير (القلب) وفى وطنه الأكبر (أمتـه) ؟ وهـل أحر لوعة من أن يشكو الإنسان مصيبته فى أحدهما إلى الآخر ؟

عروس الشعر ... ما انفسح الخيال
على دنيـا ... هى السحر الحلال
ولا نديت على الظمأ الرمال
ولا غنى فم ... لولا الجمال
قصيد الكون أنت ... وما إخال
ربابا فى يمـــين الآلهات
يصاغ بهـــا لرقته مثـــال
عروس الشعر معذرة القصيد
إذا ما جن فى وتر نشيـــدى
تمرد أن ينام ... على (القيود)

فراح يهز أجفان « العبيد »
ليفتحها على ذل السجود ...
فإذ شعبي موات فى موات
وإذ وطني : همود فى همود

وهو فى هذين الضمارين قد أرضى جميع نقاد الفن وإن لم يتعمد ذلك لأنه لم ينصت إلا إلى أوتار قلبه ، أرضى فى حبه أرباب الفن للفن كما أرضى معارضيهم فى سمو توجيهه (وحرية) أوتاره

أنا ما نظمت الشعر بل ذوبت رنات القيود
وعصفت. إذهتف الهوى. ناراً على شفة الجليد

* * *

فأما الحب ، وأما دقات الشباب ؛ وأما خفقات الفؤاد ، فما أعرف شابا أديبا مثل سليمان أحسن نجواهن فسحر ، وغنى بألحانهن فأطرب وأسكر ، وهل الحياة إلا الحب ؟

هى الدنيا ، وهل فيها — إذا لم نهو — ما يسبى
إذا رضى الغرام عليك فأمن جانب الريب

* * *

وهل عمر الشباب إلا :—

عمر الورد قصير ... فلتدع
كل ما فى الروض يغرق فى المراح
ليس فى ثغر الأقاحى متسع
لسوى القبلة من ثغر الأقاح

وإن هذا الغناء وإن شابهت أنغامه أنغام الحيام إلا أنها أشد اتصالا بينبوع الحياة ، وليس وراء مرحها وإغراقها فى اللذة جمرات يأس ، بل هى نقية صافية لأنها من معين الخلود :

علمتنى طرق السما . فجن شعرى بالسماء
وهتفت بى — والأرض تجذب ناظرى : — إلى العلاء
فهوت على قدمى ، خلف السحب ، أشباح الفناء
وإذا الخلود ... على فمى كأس تفجر بالغناء ...

* * *

لا تحذرى ... لم يحطمنا سوى الحذر
لا تحسبى غير لقيانا من العمر ...
ألقى بروحك فى أرجوحة القدر
وعانقينى على إطلالة القمر ...

* * *

أنقل على شرفات الخلد أقدامى
وأسكر الملأ الأعلى بأنغامى ...

* * *

لا تأسفى للدجى إما تريه فى
فى تمتمات النشاوى مصرع الزمن
دعى هواجس هذا الكون فى كفن
يخلو لهن ذوو (الآراء) والفطن
واستنشدينى فقد باتت تعذبنى
أنشودة لم أتمها ولا عجبا
صدرى يضيق بألحانى وإن رحبا ..

إذن فلينهل من هذا الكوثر قبل أن يفقده ، ولينتع منه أحيانا ليشعر بألم الحرمان فما هذا الألم إلا صورة من اللذة الخالدة ..

أقفلت أنغامى على جمرة لفاحة ... تلهب ماتلهب
ورحت أستعذب آلامها والألم الخلاق يستعذب

* * *

فى غد تخبو رؤانا الزاهيه لم لا نشعلها قبل الغد ؟
فى غد .. تمضى الأمانى الحاليه والأغانى بددا فى بدد

* * *

سنبسم للجراح على الجراح
ونسقيهن ألحان المراح
ويحملنا الشباب بلا جناح
إلى أحلامنا الخضر الفساح
إلى دنيا منضرة النواحى ...
هناك إذا افترشت النيرات
غفوت على أغاريدى وراحى

البقية فى العدد القادم

أحمد الفخرى